معالم علم النفس الإسلامي

د. عبد الرحمن محمد العيسوي

نحمد الله أن ظهرت، في هذه الأيام، حركات مباركة، يمكن أن نسميها اليقظة الإسلامية التي تستهدف، من بين ما تستهدف، إحياء التراث الإسلامي الأغر، وبعثه من جديد، وغرسه في نفوس الناشئة والشباب العربي والإسلامي، والبحث في طيات هذا التراث الأصيل واستكشاف درره ومكنوناته النفسية والقيمية. ومن هذه الحركات المباركة الدعوة إلى إدخال الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمختلف صوره: الإعجاز البلاغي، التاريخي، الكوني والعلمي، ضمن المقررات الدراسية في الجامعات والمعاهد العليا.

ومن هذه الدعوات الاهتمام بدراسة الجوانب النفسية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وفي هذا المقال المتواضع نناقش قضية وجود ما يسمى بعلم النفس الإسلامي. وإن كنت أبادر إلى القول بأنني لا أتفق مع من يسعى لإحالة كل ما دق وصغر من أمور حياتنا اليومية إلى القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم، ولا شك، هو الكتاب المقدس، وهو دستور جامع لحياة المسلم في الدنيا وفي الآخرة. وهو يحوي القضايا العامة والمبادىء الأساسية التي تفسر الظواهر الكونية والإنسانية. ولكننا يجب أن نفرق بين هذا الدستور الجامع والمقدس وبين أي كتاب في علم واحد بعينه من العلوم الحديثة. وإن كانت معرفة الإنسان مهما اتسعت وتعمقت مردها إلى الله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

وبخصوص وجود ما يمكن أن نسميه بلغة العصر «**علم النفس**» فلا شك أن المتأمل في القرآن الكريم وفي السنة المشرفة يدرك أنهما بصفة عامة خطاب للنفس، أو مخاطبة للنفس

البشرية والعقل والقلب والفؤاد. ولا شك أن لهذه المخاطبة الربانية أعمق الأثر في نفس الإنسان وحسه ووجدانه وفكره وعقله وفي سلوكه. وسيرى القارىء الكريم، من خلال هذا البحث المتواضع، أن التراث الإسلامي الحنيف حافل بكثير من المفاهيم النفسية وبالموضوعات التي تندرج تحت اسم علم النفس في العصر الحديث من ذلك:

١ ـ مفهوم الطبيعة الإنسانية أو البشرية.
٢ ـ مفهوم النفس وأنواعها ووظائفها.
٣ ـ السلوك، أنواعه والغاية منه.
٤ ـ الشعور.
٥ ـ الإدراك.
٦ ـ التفكير.
٧ ـ الإحساس.
٨ ـ التأمل والتدبر.
٩ ـ التعلم.
١٠ ـ التذكر.
١١ ـ الخيال.
١٢ ـ التبصر أو الإبصار أو البصيرة.

بل إن المتأمل في مضمون الآيات القرآنية الكريمة[١] والأحاديث النبوية الشريفة[٢] يستطيع أن يستشعر كثيراً من الوظائف النفسية، ومن الموضوعات التي يدعى علماء النفس في الوقت الحاضر إبتكارها، بينما لإسلامنا الحنيف فضل السبق في التعرف عليها وفي ممارستها، وإن لم تكن قد أعطيت نفس الاصطلاحات أو نفس الأسماء، من ذلك:ـ

١ ـ العلاج النفسي.
٢ ـ التوجيه التربوي والنفسي.
٣ ـ الإرشاد التربوي والنفسي.
٤ ـ التعليم والتدريب والاحتراف.

٥ ـ إعلاء الغرائز والدوافع والتسامي بها.
٦ ـ القوة والاستعداد.
٧ ـ تربية الطفل.
٨ ـ تربية المرأة.

وإذا سلمنا بأن هناك ما يمكن أن نسميه بحق علم النفس الإسلامي، فإن هذا العلم يتميز عن علم النفس الحديث بعدة مزايا، إلى جانب السبق التاريخي.

خصائص علم النفس الإسلامي:

١ ـ من ذلك أنه علم روحاني، في مقابل علم النفس المادي المعاصر، فهو لا يقدس المادة، ولا يربي أبناءه على التكالب عليها وإنما يهتم با لجوانب الروحية من الإنسان(٣).

٢ ـ أنه علم نفس أخلاقي في جوهره وفي وجهته، فهو يهتم بغرس المبادىء والقيم الأخلاقية والفضائل السلوكية في أبناء أمة الإسلام.

٣ ـ أنه علم نفس إيماني، يستهدف غرس الإيمان في قلب الفرد ووجدانه، وتأصيل هذا الإيمان وترسيخه، وتحويله إلى حيز الوجود الفعلي والسلوك العملي.

٤ ـ أنه علم نفس عقلاني، فلا مجال فيه للخرافة أو الشعوذة أو الدجل أو الوهم أو الأفكار الفلسفية أو الميتافيزيقية «**أي ما وراء الطبيعة**»، **ولكنه يخاطب عقل الإنسان وفكره وحسه ووجدانه، ويعتمد على الإقناع والبرهنة، والتبصر في الأدلة والشواهد من معجزات الله تعالى في مخلوقاته، وآياته في أحداث الكون وفي الطبيعة وفي الإنسان وبالذات في نفس الإنسان. فهو يدعو للتأمل والنظر والتدبر واستخلاص العظات والعبر، والوصول إلى النتائج القائمة على أساس الاستدلال العقلي والمنطقي. وهو بذلك دعوة للإنسان لدراسة نفسه، وكيف خلق؟ ودعوة لدراسة الظواهر الكونية، وما تنطوي عليه من معجزات الخلق. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نصف هذا العلم بأنه علم تجريبي يقوم على أساس مشاهدة الظواهر الكونية والتأمل فيها وملاحظتها ملاحظة دقيقة بغية الاهتداء** إلى خالقها سبحانه وتعالى.

٥ ـ نستطيع أن نصف «**علم النفس الإسلامي** بالقول إنه يمتاز بالنظرة الشمولية التكاملية. فإذا كانت هناك بعض مدارس علم النفس الحديث التي تنظر للغرائز الفطرية في الإنسان،

وإذا كانت هناك مدارس أخرى تنظر للجوانب العقلية في الإنسان، فإن المدرسة الإسلامية (٤) في علم النفس تمتاز بالنظرة الشمولية للإنسان ككل موحد مكون من النفس والجسم، بل تنظر إليه كجزء من كيان أكبر هو الأسرة والمجتمع أو الوطن، وتدرك ما بين هذا الإنسان وبين عالمه الذي يعيش فيه. وتلك نظرة تمتاز عن النظريات الحديثة التي توصف «بالتخصص الدقيق» والتي تجزىء الإنسان، وتجزىء المعرفة الإنسانية إلى جزئيات صغيرة تضيع معها الغاية الكلية للأشياء.

هذه إشارة عابرة لعلم النفس الإسلامي وخصائصه بالمقارنة إلى علم النفس الحديث، ولكن لإحكام فهم القضية والتعرف على جوهر هذا العلم الإسلامي وإدراك ما بينه وبين العلم الحديث من ضروب الاتفاق والاختلاف، نسوق للقارىء الكريم شرحاً لمفهوم علم النفس الحديث ومناهجه وموضوعات دراسته ومجالاته النظرية والعملية.

مفهوم علم النفس الحديث ومناهجه وموضوعاته ومجالاته النظرية والتطبيقية:

كان علم النفس قديماً يعرف بأنه علم دراسة العقل البشري **The Study of Human Mind**، ولكن سرعان ما تبين أن العقل مفهوم مجرد، أي معنوي. وليس له وجود حسي ملموس يصلح للقياس وللتجريب. ولذلك تحول علم النفس إلى دراسة السلوك الإنساني **The Study of Human Behaviour**، ذلك لأن السلوك يمكن ملاحظته ومشاهدته وقياسه، كما يمكن تعديله وتحسينه. فضلاً عن أن السلوك يصدر عن الإنسان بكليته أو يصدر عن الإنسان كوحدة جسمية نفسية روحية خلقية اجتماعية. يبقى أن نتعرف على مفهوم السلوك في علم النفس، حيث يقصد بالسلوك كل ما يصدر عن الكائن الحي من استجابات داخلية أو خارجية نتيجة لتعرض الإنسان لبعض المثيرات. ومن هنا يمكن القول بأن هناك سلوكاً فطرياً يوجد عند جميع أفراد النوع. وهو السلوك الذي يرثه الإنسان ويولد مزوداً به، فلا يكتسبه أو يتعلمه من البيئة الاجتماعية والمادية التي يعيش في كنفها. ثم هناك السلوك المكتسب وهو ما يتعلمه الفرد ويميز علماء النفس بين السلوك الشعوري، وهو

السلوك الذي يدرك الفرد دوافعه ويعرفها ويعيها ويفطن إليها تماماً، كذهاب الطالب للجامعة لتلقي العلم والمعرفة(٥). ويبين السلوك اللاشعوري الذي لا يدرك الفرد دوافعه، ومن ذلك ما يظهر في الأحلام وفي العقد والأمراض النفسية. ثم هناك السلوك السوي الطبيعي، والسلوك الشاذ. ومن ضروب النوع الأخير خوف الفرد من رؤيته الماء أو الدماء أو الظلام .. الخ.

المنهج :

هذا هو السلوك بالمعنى النفسي، أما عن المنهج الذي يستخدمه علم النفس الحديث في دراسة موضوعاته فهو المنهج العلمي التجريبي، الذي يقوم على أساس إجراء التجارب. ونعني بالتجربة أن يصطنع الباحث الظاهرة التي يريد دراستها اصطناعاً تحت الظروف التي يرغب فيها. كما يعتمد المنهج العلمي على الملاحظة أو المشاهدة أو المعاينة، وتصلح للظواهر التي لا يمكن إحداثها تجريباً كالمرض أو الحب أو الموت أو الجريمة. وإلى جانب هاتين الدعامتين: الملاحظة والتجربة، فإن علم النفس الحديث يتخذ من الرياضيات لغة لعرض نتائجه وإستخلاص حقائقه. كذلك فإن فكر الباحث السيكولوجي الحديث يتسم بالموضوعية، لا بالذاتية حيث يقف من الظواهر التي يدرسها موقف الحياد، فيصفها كما هي موجودة بالفعل في الواقع، ويسجلها كما هي، لا كما يريدها هو أن تكون، ولا كما ينبغي أن تكون، وإنما يسجلها كما هي دون أن يفض عليها أهواءه وآراءه الذاتية والشخصية أو ميوله أو تعصبه أو تحيزه. وإنما يقف موقف الحياد. وكذلك ظهرت المعامل والمختبرات النفسية التي تقيس الظواهر المراد دراستها قياساً كمياً، وموضوعياً، كالذكاء أو القدرات أو الأمراض. هذا هو علم النفس الحديث وموضوع دراسته يتناول جميع حياة الإنسان الشعورية واللاشعورية، والفردية والجماعية. ولذلك يدرس موضوعات مثل الدوافع على السلوك، والشعور واللاشعور. كما يدرس العمليات العقلية العليا في الإنسان كالتفكير والتخيل والتصور والإدراك والتعلم والتذكر. كما يدرس أيضاً الانفعالات كالحب والكره والخوف والأحلام والإحساس. ولقد اتسعت آفاق علم النفس الحديث وأصبح يتناول جميع جوانب الحياة العصرية، السوية والشاذة الفردية والجماعية. فتدخل في السياسة والصناعة والتجارة والحرب والتربية(٦).

مجالات علم النفس:

هناك العديد من فروع هذا العلم الناشىء، فقد اتسعت آفاقه، بعد أن ثبتت فائدته وحاجة إنسان العصر إليه، لا لحمايته من الأمراض العقلية والنفسية وحسب، وإنما لزيادة كفاءته ومقدرته الإنتاجية، وتنمية قدراته الإبداعية. من هذه الفروع علم النفس الفسيولوجي، ويدرس الظواهر الجسمية والداخلية من حيث اتصالها بالأحوال النفسية، وعلاقاتها بالجهاز العصبي(٧). وهناك علم النفس الصناعي ويختص بدراسة العمل والعمال وتوزيعهم على الأعمال التي تتفق مع قدراتهم وذكائهم. كما يدرس الأمن الصناعي وحوادث العمل، والتدريب المهني، والظروف الفيزيقية المحيطة بالعمل كالإضاءة والحرارة(٨). أما علم النفس التجاري فيدرس أساليب التأثير في المشترى، ومعرفة ذوقه ووسائل الإعلام والدعاية، وطرق إدارة المؤسسات والشركات وأساليب تحقيق الربح. وهناك علم النفس الجنائي ويدرس أسباب الجريمة ودوافعها ومكافحة الانحراف والجنوح، ويسهم في رسم السياسة العقابية للمجتمع. ومن فروع علم النفس الحديث علم النفس الحربي ويهتم بدراسة الروح المعنوية للجنود وكيفية العمل على ارتفاعها، كما يدرس أساليب الحرب النفسية دفاعاً وهجوماً، وطرق تدريب الجنود، وتوزيعهم على الأسلحة المختلفة. أما علم النفس الفارقي فيدرس الفروق التي توجد بين الأفراد والجماعات، تلك التي ترجع إلى عوامل السن والجنس والسلالة والطبقة الاجتماعية .. الخ. ويدرس علم نفس الطفل مراحل النمو وخصائص كل مرحلة ومطالب النمو فيها، وطرق تعليم الطفل وتربيته كما يدرس دوافع الطفل واتجاهاته وميوله ومشكلاته. ويختص علم النفس الشواذ بدراسة السلوك الشاذ، كالضعف العقلي، والأمراض النفسية والعقلية، كما يدرس العبقرية والنبوغ. ومن الفروع الهامة لعلم النفس الحديث علم النفس التربوي ويدرس التوجيه التعليمي والنظريات التي وضعت لتفسير عملية التعلم. أما علم النفس الحيوان فيدرس سلوك الحيوان كالإدراك والتعلم ويدرس غرائز الحيوان ودوافعه وذكائه. ويهتم علم النفس المقارن بمقارنة سلوك الإنسان والحيوان وسلوك الطفل والراشد الكبير، والبدائي والحضاري والسوي والشاذ. كذلك يهتم علم النفس القضائي بدراسة جميع العوامل النفسية التي تؤثر في المشتركين في الدعوى الجنائية كالقاضي والمتهم والمجني عليه والشهود والدفاع، والأدلة ومدى تأثيرها في

القضاة. وهناك علم النفس الاجتماعي ويدرس إتجاه الأفراد إزاء غيرهم من الناس ومن المؤسسات، كما يدرس العلاقة بين الفرد والبيئة الاجتماعية . ومن موضوعاته القيادية والرأي العام والشخصية واللغة(٩) . وكلما زادت الحياة العصرية والحضارة الحديثة تعقيداً كلما زادت الحاجة إلى علم النفس، ولذا ظهرت فروع حديثة منه، منها علم النفس البيئي، وسيكولوجية الزحام، وسيكولوجية التلوث، كما ظهرت موضوعات تستهدف مقارنة نشاط ذهن الإنسان بنشاط الحاسب الآلي أو العقول العلمية. كذلك ظهرت إتجاهات نفسية متأثرة بالفلسفات المعاصرة كالفلسفة الوجودية والبرجماتية(١٠) . هذه موضوعات علم النفس الحديث، ومنها يتضح أنها تشمل كافة جوانب الحياة العصرية. وهنا يمكن أن ننتقل، مع القارىء الكريم، إلى التعرف على الأصول الإسلامية لهذا العلم الناشيء، أو بالأحرى التعرف على معالم علم النفس الإسلامي ومفاهيمه وخصائصه .

معالم علم النفس الإسلامي:

يستطيع المتأمل في تراثنا الإسلامي الحنيف أن يدرك أن هناك دعوة لدراسة النفس الإنسانية، وكثير من العمليات العقلية والنفسية كالإحساس والإدراك والتفكير والتخيل والتصور والتأمل والتدبر في مخلوقات الله(١١).

وظائف النفس:

يصور القرآن الكريم النفس البشرية، ويشير إلى أن هناك نفساً لوامة، تلوم صاحبها على ما يرتكب من الذنوب والمعاصي. وتشبه هذه النفس الضمير الخلقي في علم النفس الحديث، أو الذات العليا في مفهوم مدرسة علم النفس التحليلي. يقول تعالى «**ولا أقسم بالنفس اللوامة**» [**القيامة ٢**]، ومن وظائف النفس كذلك أنها قد تدفع صاحبها إلى الإتيان بالسوء مصداقاً لقوله تعالى «**وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي**» [**يوسف ٥٣**] ومن خصائص النفس، في المدرسة النفسية الإسلامية أنها قد تكون سوية، وقد تكون معتلة، وفي الحالة الأخيرة يلزم التدخل بالوعظ والإرشاد والنصح والتوجيه والإقناع لعلاجها. يقول الله تعالى

«**ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها**» [**الشمس ٧**]. ومن وظائف النفس أنها مسئولة عما تأتيه من الخير والشر، من السلوك الطيب الحميد ومن السلوك الشاذ والمنحرف لقوله عز وجل «**واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة**» [**البقرة ٤٨**]. وتمتاز النظرة الإسلامية بتحديد مسئولية النفس لأن ذلك يدعوها إلى الاستقامة وإلى السوية. وبذلك تختلف نظرة الإسلام عن «الحتمية السيكولوجية»(١١) الحديثة والتي تذهب إلى القول بأن سلوك الإنسان محتوم عليه بحكم الظروف والملابسات والمؤثرات التي تحيط بالفرد، وبذلك يصبح من الحتم عليه أن يأتي هذا السلوك المعين. ومن خصائص النفس، في التصوير الإسلامي الأصيل، أن لها طاقة محدودة وليست طاقة مطلقة، وعلى ذلك فلا يجوز أن تكلف بما لا طاقة لها به، أو بما يفوق قدرتها لقوله تعالى «**لا تكلف نفس إلا وسعها**» [**البقرة ٢٣٣**]. ومن خصائص النفس أنها لا تموت إلا بإذن الله تعالى، وتعطى هذه النظرة الشعور بالاطمئنان للإنسان «**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً**» [**آل عمران ١٤٥**]. والنفس الإنسانية، في التصور الإسلامي، نفس واحدة، أو ذات أصل واحد. ومن شأن هذا التصور أن يعطى للإنسان شعوراً بالوحدة والإتحاد والوئام والتجانس مع بني جنسه، ويختلف هذا عن النزعات العنصرية الحالية(١٢) وفكرة القوميات(١٣) والنعرات الطائفية والشعور بالسمو. وذلك مصداقاً لقوله تعالى «**يا أيها الناس أتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة**» [**النساء آية ١**]. ومن خصائص النفس أنها ستلقى جزاء عملها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، لقوله تعالى «**ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب**» [**ابراهيم ٥١**] وقوله تعالى «**وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون**» [**النحل ١١١**] وللنفس كرامة لا بد وأن تصان فلا يجوز قتلها إلا بالحق «**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**» [**الإسراء ٢٣**].

ووفقاً للتصور الإسلامي، وللعقيدة الإسلامية فإن «**كل نفس ذائقة الموت**» [**الأنبياء ٣٥**]. وفكرة حتمية الموت من الأفكار التي تساعد الإنسان على عدم التكالب على الدنيا ومتاعها، والتي تحد من عدوان الإنسان على أخيه الإنسان. وإذا كانت النفس، في التصوير القرآني الكريم، لها وظائف، فإن هذه الوظائف محدودة، فهناك ما يتعدى دائرة معرفتها. فهي لا تدري متى وأين ولماذا تموت «**وما تدري نفس بأي أرض تموت** [**لقمان ٣٤**]. ومن وظائف النفس

الشعور بالحسرة والندم واللوم والتأنيب والتعنيف يقول الله تعالى «**أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله**» [**الزمر ٥٦**]. وإلى جانب تقرير مسئولية النفس «**كل نفس بما كسبت رهينة**» [**المدثر ٣٨**]. فإن الإنسان مطالب بأن ينهي نفسه عن الهوى وأن يوجهها نحو الصلاح والتقوى والورع والخشوع والطاعة مصداقاً لقوله تعالى «**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى**» [**النازعات ٤٠**]. والنفس قد تكون شقية تعسة، وقد تكون مطمئنة راضية مرضية «**يا أيتها النفس المطمئنة. أرجعي إلى ربك راضية مرضية**» [**الفجر ٢٧**]. وقد تكون النفس زكية طاهرة كما في قوله تعالى «**قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً**» [**الكهف ٧٤**]. وفي الوقت الذي تأتي الحسنات للإنسان من الله تعالى الغفور الرحيم، فإن السيئات تأتي من النفس، «**وما أصابك من سيئة فمن نفسك**» [**النساء ٧٩**]. والله تعالى يعلم ما تحويه نفوسنا، ولكننا لا نعلم علم الله لقوله تعالى «**تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك**» [**المائدة ١١٦**]..

«**فعلم النفس**» علم محدود وليس علماً مطلقاً. وهذه حقيقة يقرها ويؤكدها العلم الحديث. والنفس هي التي تقوم بذكر الله تعالى، والتضرع لله تعالى، وعملها قد يكون خفياً مستتراً، وقد يكون علنياً. مصداقاً لقوله تعالى «**وأذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة**» [**الأعراف ٢٠٥**]. والنفس شاهد على الإنسان يوم القيامة لقوله تعالى «**إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**» [**الإسراء ١٤**].

ومن وظائف النفس الصبر والمصابرة «**وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى**» [**الكهف ٢٨**]. والإنسان قد يظلم نفسه ويوقع عليها الأذى والظلم لقوله تعالى «**ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه**» [**البقرة ٢٣١**]. وترجع هداية الإنسان أو ضلاله إلى نفسه «**فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها**» [**يونس ١٠٨**]. وقوله تعالى «**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه**» [**الفتح ١٠**]. ومن وظائف النفس أنها توسوس للإنسان إلى الحد الذي جعل الطب النفسي الحديث يفرد مرضاً خاصاً أسماه الوسوسة(١٤)، وفيه تظل الأفكار السوداء أو التافهة تهبط على ذهن الإنسان فتقلق مضجعة، ولا يستطيع التخلص من هذه الأفكار،

وتلك الهواجس والوساوس رغم علمه بسخافتها وعدم جدواها(١٥) إلا أنه يصعب عليه التخلص منها. وفي هذا الصدد يقول القرآن الكريم «**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه**» [**سورة ق ١٦**]. والنفس كما قد تكون سخية كريمة، قد توصف بالشح والبخل لقوله تعالى «**ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون**» [**الحشر ٩**]. والنفس قد تشقى وتتحمل المشاق والمكابد لقوله تعالى «**وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس**» [**النحل ٧**]. والنفس قد تشتهي الأشياء كما في قوله تعالى «**وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون**» [**الزخرف ٧١**].

وقد يشير لفظ النفس في القرآن الكريم إلى الشخصية برمتها كما في قوله تعالى «**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**» [**البقرة ٤٤**]. فالإنسان كذلك مطالب بأن يعود نفسه على البر والإحسان. والنفس قد تبطن بعض النوايا والرغبات، ولكن الله تعالى يحاسبنا على ما تحتويه أنفسنا من الخير أو من الشر، فالأعمال بالنيات «**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**» [**البقرة ٢٨٤**]. والنفس كما هي فاعلة للتأمل والتبصر والتذكر، فهي كذلك موضوع للتأمل فيها بغية الوصول إلى خالقها، فهي برهان على الصانع العظيم، وهي واحدة من معجزات الله ومن آياته في الخلق «**ضرب لكم مثلاً من أنفسكم**» [**الروم ٢٨**]. فالله تعالى يدعونا للنظر والتأمل والتبصر في أنفسنا «**وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون**» [**الذاريات ٢١**]. ومن خصائص النفس أنها قادرة على إخفاء محتواها كما في قوله تعالى «**يخفون في أنفسهم ما لا يبدون**» [**آل عمران ١٥٤**].

وفكرة إخفاء بعض محتويات النفس تشبه، في الوقت الحاضر، فكرة الكبت(١٦)، حيث تترسب بعض الذكريات والرغبات في منطقة مجهولة من الذات هي منطقة اللاشعور، ويهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بالنفس، ويجعلها أساس كل إصلاح، فإذا صلحت النفوس فقد صلحت الحياة «**ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**» [**الأنفال ٥٣**]. فتقويم النفس أساس تقويم الشخصية وإصلاحها أساس إصلاح الحياة الاجتماعية، ومن هنا تبرز أهمية علاج أمراض النفس وعللها ووقايتها من الإصابة بتلك الأمراض والعلل «**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**» [**الرعد ١١**]. وخلق النفس

آية من آيات الله ينبغي أن يتدبر فيها الإنسان ويتأمل فيها وصولاً إلى الخالق المبدع «**ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم**» [**الكهف ٥١**]. والنفس موضوع لتفكير الإنسان وإعمال عقله لقوله تعالى «**أولم يتفكروا في أنفسهم**» [**الروم ٨**]. وهكذا يوضح القرآن الكريم النفس البشرية وخصائصها ووظائفها وطبيعتها قبل أن يهتدي علم النفس الحديث إلى شيء من هذا.

مفهوم القلب:

ومن المفاهيم النفسية في القرآن الكريم إلى جانب النفس، العقل والفكر، والقلب والأفئدة، واللب والبصيرة، والذكر والعلم، والإدراك والفهم، وما إلى ذلك. ويقترب مفهوم القلب من مفهوم النفس، فقد يوصف بالرقة أو بالغلظة «**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**» [**آل عمران ١٥٩**] وقد يكون القلب سليماً أو معتلاً «**إلا من أتى الله بقلب سليم**» [**الشعراء ٨٩**]. فالقلب قد يصاب بالمرض وقد يتمتع بالسلامة والإيمان «**إن أتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض**» [**الأحزاب ٣٢**]. وقد يشعر القلب بنور العلم والهداية وقد تطمسه الغشاوة «**وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة**» [**الجاثية ٢٣**]. كذلك فإن القلب قد يتمتع بالأمن والأمان والطمأنينة وقد يحرم من كل هذا «**قال أولم تؤمن. قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي**» [**البقرة ٢٦**]. و قد يشعر القلب بالخوف والهلع والرعب والفزع إذا فرغ من الإيمان «**سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله**» [**آل عمران ١٥١**]. ومن وظيفة القلب التفقه والفهم العميق «**لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها**» [**آل عمران ١٧٩**]. كذلك فإن العين قد لا تبصر فتتعطل وظيفتها. وسبيل شعور القلوب بالإطمئنان هو ذكر الله تعالى «**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**» [**الرعد ٢٨**]. ومن وظائف القلب التعقل والتفكير والإدراك «**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها**» [**الحج ٤٦**]. ومن وظيفة القلب أن يتدبر القرآن الكريم «**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**» [**محمد ٢٤**]. والقلب يشعر بفضل الله، بالسكينة والهدوء «**هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً**» [**الفتح ٤**]. ومن خصائص قلب المؤمن أن يكون مملوءاً بالرأفة والرحمة «**وجعلنا في قلوب الذين أتبعوه رأفة ورحمة**» [**الحديد ٢٧**]. ومن خصائص القلب، في التصور القرآني، الشعور بالخوف

والرجفة والاصغاء أو الطاعة، وكذلك القسوة فتصبح كالحجارة. والقلب لدى المؤمن يشعر بالألفة والتعاطف، فالله تعالى هو الذي يؤلف بين القلوب.

ويصف القرآن الكريم كثيراً من العمليات النفسية التي أصبحت موضوعاً لدراسة علم النفس الحديث. فالقرآن الكريم يستخدم لفظ الأبصار ليعني عملية الإدراك «فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها» [الأنعام ١٠٤]. فالقرآن يدعو للتفكير. والمعروف أن التفكير من العمليات العقلية التي تشكل موضوعاً أساسياً من موضوعات دراسة علم النفس الحديث «إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» [النحل ١١]. وبالمثل يدعو القرآن الكريم للتذكر والتعقل والسمع «إن في ذلك لآية لقوم يسمعون» [النحل ٦٥].

هذه صورة مبسطة لمعالم علم النفس الإسلامي، ولكن التراث الإسلامي حافل بما هو أعمق من هذا، وبما هو أكثر شمولاً لجوانب حياة الإنسان النفسية، ويكشف التنقيب في مكنونات هذا التراث أنه تناول الجوانب النفسية في كافة مجالات حياة الإنسان، حياة الفرد وحياة الجماعة. ففيه نهى عن إنفعال الغضب، والمعروف حديثاً أن للإنفعالات الحادة آثاراً ضارة بصحة الفرد الجسمية والعقلية، كذلك يتضمن هذا التراث الأصيل من الدعاء ومن السلوك القويم، ومن العفو والتسامح، وفوق كل شيء من الإيمان، ما يقي الفرد من الإصابة بالأمراض العقلية والنفسية. كذلك في الدعاء وفي الذكر، وفي الصلاة وفي الصوم، وفي الزكاة وفي الحج، وفي كافة التكاليف ووجوه البر والإحسان ما يحمي الإنسان من التعرض لهذه الأمراض. ففي القرآن الكريم أبلغ طرق العلاج النفسي. إلى جانب هذا فتراثنا زاخر بمعلومات نفسية. عن الحرب وفنونها، وعن التجارة وأصولها الخلقية، وعن الزواج وقواعده، وعن تكوين الأسرة الصالحة، وعن طلب العلم والمعرفة. وهكذا مما تتضمنه فروع علم النفس الحديث: العام، القضائي، الجنائي، المهني، التجاري، الاجتماعي، الارتقائي، العسكري أو الحربي، وعلم النفس التربوي. فلكل من هذه الفروع أصول في تراثنا العريق. فما أحرانا أن نجلب هذا التراث وأن نهتدي بهديه، وأن ننشره للعالم أجمع لأن من لا ماض له. لا حاضر له..

هوامش البحث:

(١) **القرآن الكريم.**

(٢) **الصحيحين** البخاري، ومسلم.

(٣) يمكن للقارىء الكريم الاطلاع على أي مرجع في علم النفس الحديث لعقد المقارنة من ذلك كتاب: **د. سعد جلال** المرجع في علم النفس، دار المعارف بمصر.

(٤) **د. أحمد عزت راجح**، أصول علم النفس، دار القلم بيروت.

(٥) **د. عبد الرحمن العيسوي**، معالم علم النفس، دار النهضة العربية بيروت.

(٦) **د. عبد الرحمن العيسوي**، علم النفس في الحياة المعاصرة، دار المعارف بمصر.

(٧) **د. عبد الرحمن العيسوي**، علم النفس الفسيولوجي، دار النهضة العربية، بيروت.

(٨) **د. عبد الرحمن العيسوي**، علم النفس والانتاج، دار النهضة العربية، بيروت.

(٩) **د. عبد الرحمن العيسوي**، علم النفس الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت.

(١٠) البرجماتية Pregmatism هي الفلسفة العلمية والعملية السائدة في أمريكا والتي تحكم على الأشياء وفقاً لفوائدها العملية أو نتائجها العملية.

(١١) أو القول بالجبر — Psychological determinism.

(١٢) — Racialism.

(١٣) — Nationalism.

(١٤) يطلق على هذا المرض النفسي عصاب الوسواس — Obsession

(١٥) **د. عبد الرحمن العيسوي** أمراض العصر، دار المعرفة الجامعية.

● ● ● ● ●

◦ وحدة كلمتنا الإسلامية ليست لصالحنا فقط، إنما لمصلحة السلام والبشرية جمعاء.

«فيصل بن عبد العزيز»